المبحث الرابع

الفرق بين سلفية المشرق وسلفية المغرب وتأثير نيجيريا بالأخيرة دون الأولى

السلفية : مذهب يقف موقف الصحابة والتابعين في كل نص أوهم التشبيه يؤمن به ويفوض معناه إلى الله ، وهي أيضًا مذهب يدعو إلى التمسك بالسنة واجتناب كل بدعة ليس لها أصل مستنَدٌ في الشرع .

وكان الإمام مالك أول من صرح بمنع تأويل صفة الاستواء عندما سئل عنه قال : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

ثم جاء أحمد بن حنبل ووقف موقفًا صلبًا أمام فتنة القول بخلق القرآن على رأي المعتزلة بخلاف ما عليه أهل السنة من أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق .

ثم جاء الإمام أحمد بن تيمية وكان يكافح ضد الجمود الفكري ، فدعا إلى فتح باب الاجتهاد في الفروع إلى جانب حملاته على الصوفية ، وأخيرًا جاء ابن الجوزي الواعظ الشهير وحمل عصاه على الفرق الإسلامية وبالأخص منهم الصوفية في كتابه تلبيس إبليس .

ويخيل إلى الكثير من الباحثين أن السلفية كلها مردها إلى الحنابلة المذكورين وغيرهم ، ولكننا لما تتبعنا آثار السلفية وجدنا هناك فرقا بين سلفية المشرق التي يتزعم حركاتها الحنابلة وبين سلفية المغرب التي يقودها المالكيون لما سنوضحه في السطور الآتية ، وحاش لله أن يفهم الناس من مقارنتنا بين مذاهب الشرق ومذاهب الغرب ، أننا نفرق بين الأصل وفرعه أو بين الشيخ وتلميذه ، ومعاذ الله أن يظن واحد أننا ننكر ما للشرق على الغرب من فضل السابقة والتقدم .

كيف ، والصحابة هم الذين حملوا لواء الإسلام من الجزيرة العربية إلى مصر ومنها إلى شمال أفريقيا ، وحملوا معها الكتاب والسنة .

وهذا أسد بن الفرات الذي خرج من تونس أو القيروان وتوجه إلى مصر ليتلقى من عبد الرحمن بن القاسم المصري تلميذ الإمام مالك موطأه ، ثم ليرجع إلى بلاده ينشر علوم الإمام مالك هناك .

وكذلك نرى عبد السلام الملقب بسحنون يخرج من القيروان إلى ابن القاسم المذكور ليجمع فتاوى الإمام مالك في كتابٍ سماه «المدونة الكبرى»، ولم يزل العلماء المغاربة يرتادون دور العلم والحكمة في مصر بالأزهر وجامع شيخو بالفسطاط ، كما ظل علماء تمبكتو وجنى يتوجهون إلى مصر للاستفادة من أعلامها ، فقويت الصلة بين الطرفين حتى زار الإمام السيوطي بلاد المغرب وغرب أفريقيا وجامعة تمبكتو وجنى وزار مدينة كانو وكاشنة وأكدس ، وإذا نحن ذكرنا الفرق بين مذهب الشرق ومذهب

الغرب في شيء من ذلك ومن غيره ، وإنما نريد إثبات ما كان يتمتع به رجال الفقه الإسلامي من حرية الاجتهاد المفتوح بين المشائخ وتلاميذهم تحت قاعدة « رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وقد وجدنا من تلاميذ الإمام مالك من خالفه في بعض مسائل فرعية كأصبغ وأشهب .

ولم يكن السلف يفرضون على الناس مذهبهم في المسائل الفرعية ، فقد امتنع الإمام مالك أن يقبل اقتراح الخليفة العباسي حمل الناس على الموطأ حسما لمادة الخلاف ، ولو قبل مالك الاقتراح لما ترك مجالا لمذهب الشافعي وغيره أن يظهر ، والإمام الشافعي كان له مذهبان أحدهما قديم بالعراق وثانيهما جديد في مصر . فلا غضاضة في اختلاف المذاهب والآراء في الإسلام .

أما الفرق بين الاتجاه السلفي في المشرق والاتجاه السلفي في المغرب فيتلخص في :

أولاً : إن أكثر السلفيين المغاربة كانوا من رجال التصوف ولهم زوايا وتكايا ومريدون وأوراد ولهم مؤلفات في التصوف ، على خلاف السلفيين المشارقة فإنهم باستثناء إسماعيل الهروي . خصوم التصوف والصوفية ، وأبو الفرج الجوزي معروف بذلك في تلبيس إبليسه وابن تيمية كذلك في أكثر كتبه ورسائله وابن عبد الوهاب النجدي كذلك ومن تبعهم كالشوكاني والأمير الصنعاني .

ثانيًا : كتب عبد المتعال الصعيدي في كتابه «التجديد والمجددون» عن تقصير الجوزي وتقصير ابن تيمية في محاربة سلاطين زمانهم على ما بلغوا من أسوأ الحال ، وأنهما لم يتكلما في إصلاح الأوضاع الاجتماعية كما تكلما في الصوفية والفقهاء والاجتهاد .

ذكر أبو الفرج كثيرًا في الكلام على الصوفية كله كلام جيد يدل على عقلية مستنيرة ، وكان هو رجعيا جامدا فيما عدا هذه الناحية من التجديد إلى أن قال[1].

وكان هو مع هذا على صلة حسنة بالملوك والأمراء الذين كانوا يأخذون على الصوفية الاتصال بهم ، وقد ألف لواحد منهم كتابًا سماه «المصباح المضيء في خلافة المستضيء» وكتاب «النصر على مصر» بمناسبة عودة الخطبة للعباسيين من الفاطميين ، فلم يسمع منه في إصلاح حكمهم شيئًا ولم يجتهد في جعل الحكم شوريا لا استبداد فيه ، كل هذا ونحوه قلل من شأنه في التجديد .اهـ.

أما ابن تيمية الملقب بشيخ الإسلام لمحاربته البدع ومقاومته الصوفية قال عنه الصعيدي[2] :

وقد أحسن ابن تيمية فيما حاوله من إحياء روح الجهاد في المسلمين بعد أن ماتت فيهم ، بتغلب التتار عليهم ، وأحسن فيما حاوله من الإصلاح في التصوف الذي صار جهلاً وبطالة ، وأحسن

---

(1) التجديد والمجدودن ص ٢٤٠ .
(2) المرجع السابق ص ٢٦٤ .

فيما حاوله من فتح باب الاجتهاد في الفروع ، إلى أن قال : يؤخذ عليه أنه لم يحاول إصلاح طريقة الحكم في وقته وقد وصلت إلى أسوأ ما وصلت إليه في الإسلام اهـ .

أما سلفية المغرب وجميع الذين أخذوا منهم من علماء السودان فلهم أدوار ملموسة في الإصلاح الاجتماعي وإصلاح الحكم ، كما كان لعلماء الأزهر عبر السنين العديدة حتى ظهر فيهم الإمام الغزالي وعبد القادر الجيلاني وعز الدين ابن عبد السلام .

يقول الدكتور حسن محمد محمود في كتابه «انتشار الثقافة العربية بغرب أفريقيا»[1] : إن فقهاء المالكية في السودان الغربي كان شأنهم شأن فقهاء المالكية في المغرب ، يتزعمون المجتمع ويدافعون عن حقوق الناس ويثورون على الظلم ويجهرون بنقد الحكام وتجريحهم ، فكان ولاة مراكش وبشاواتها كلما سمعوا نقدًا وتجريحًا أو رأوا خروجا عن طاعتهم تكلموا بالعلماء والفقهاء . اهـ .

وكان الجامع الأزهر بمصر أوحى إلى القرويين بفاس والزيتونة بتونس أن يسير الجميع على وتيرة واحدة في الاتجاه السلفي الصوفي والنصح للأمراء والسلاطين .

فما من عالم من علماء المغرب والسودان الغربي إلا وهو سلفي مالكي صوفي داعية إلى الله .

ومنهم من دعا الملوك الكفار ولاطفوهم حتى أسلموا ، ومنهم من قاوموا أولئك الملوك بالجنود والعتاد حتى انتصروا

---

(1) انتشار الثقافة العربية بغرب أفريقيا ص ٢٥٤ .

أو استشهدوا ، ومنهم من استعمل الحكمة والموعظة الحسنة مع أولئك الملوك ولم يستعجل في أمرهم حتى هداهم الله أو هدى أولادهم وذريتهم للإسلام .

وقد ذكر السلطان بللو في إنفاق الميسور :

إن الشيخ الوالي التاركي مكث مدة في بلاد يَاُوري ما بين زمفرة ونوفي ، وظل يدعو سلطان يَاوري إلى إقامة العدل والشريعة ، فقبل السلطان منه وطلب إليه أنَ يكتب له النصائح عند إرادته مغادرة بلاده .

وهذا الشيخ نفسه هو الذي قتله سلطان برنومَايْ عُمَر لما قام بالإرشاد في بلاده ، فاتهمه السلطان أنه يشتت عليه رعيته فقتله .

وهناك في بلاد يوربا عدد لا يستهان به ممن قام موقفا صلبا في سبيل الله حتى نصرهم الله بالغلب أو بالاستشهاد ، كل ذلك مما ورثوه من مشائخهم المغاربة رحم الله الجميع .

ومما يباهي به المغرب على جميع الحكومات والدول الإسلامية أنه لم يسجل التاريخ خَبَر ملك أو سلطان أو أمير أو خليفة في المغرب اضطهد عالما من العلماء أو فقيهًا من الفقهاء أو واظعًا من الوعاظ ، وربما حدث بين عالم أو خليفة خلاف فرعي في بعض المسائل ، ولكنه لم يصل في يوم من الأيام إلى درجة الاضطهاد .

بل المشهور عن الجميع أن الخلفاء والأمراء كانوا يسيرون على هدى وإرشاد من أولئك العلماء والفقهاء ، على مثل الصورة التي نراها اليوم في شخصية الملك الحسن الثاني أطال الله بقاءه وأعانه على ما أولاه .

السلفيون المغاربة كلهم صوفيون

نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر ، عددًا من الدعاة الذين نشروا الدعوة والثقافة في المغرب وفي غرب أفريقيا ، لكي يتم تحقيق القول بأنهم سلفيون مالكيون صوفيون ، فنقول :

أولا : عبد الله ابن ياسين الذي قاد الحركة المرابطية وتألف من أتباعه جنود صاروا قوادًا في غزواتهم وملوكًا بعد تأسيس دولهم ، يوسف ابن تاشفين ويحيى بن إبراهيم وأبو بكر بن عمر هم الذين قاموا بحمل راية الجهاد وحركة الإصلاح وإقامة السنن بالمغرب والسودان الغربي (نيجيريا).

ثانيًا : ثم جاء دور الفقهاء والمحدثين يدعون إلى الاتّباع وينهون عن الابتداع وتلك مهمة السلفيين ، وأولهم الإمام يوسف ابن عبد البر القرطبي المغربي ٤٦٤هـ في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» ما يعبر عن موقفه السلفي في كل شيء .

ثالثًا : ثم جاء القاضي عياض الذي عاش ما بين ٤٧٦-٥٤٤هـ وهو صاحب كتاب «الشفا في حقوق المصطفى» وهو كتاب يعبر عن اتجاهاته السلفية في إحياء السنن وإخماد البدع .

رابعًا : ثم جاء بعده أبو مدين شعيب المغربي المتوفى ٥٩٣هـ إمام جميع رجال الصوفية في الشرق والغرب .

خامسًا : ثم جاء بعده عبد الله بن سعد بن أبي جمرة المتوفى ٦٧٥هـ له «مختصر البخاري» وهو شيخ العلماء الذين أتوا من بعده في إحياء السنن .

سادسًا : ثم جاء بعده تلميذه أحمد بن الحاج المغربي الذي اشتهر بكتابه «المدخل» وقد اقتفى أثر شيخه أبي جمرة في محاربة البدع .

سابعًا : ثم جاء بعده سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» المتوفى ٨٧٠هـ وهو غني عن التعريف .

ثامنا : ثم جاء بعده أحمد زروق ٨٤٦ – ٨٩٩هـ صاحب كتاب «قواعد التصوف ، وعمدة المريد ، والنصيحة الكافية».

تاسعا : ثم جاء بعده أحمد بن المبارك الذي تتلمذ للشيخ عبد العزيز الدباغ وقد جمع فتاوى الدباغ في كتابه «الإبريز» ١١٢٩هـ .

عاشرًا : ثم جاء أبو إسحاق الشاطبي صاحب كتاب «الاعتصام» المشهور وقد عاش إلى ١٢٨٨هـ .

وهؤلاء كلهم مالكيون أشعريون صوفيون سلفيون دعاة ، وهم الذين تأثر بهم علماء نيجيريا وغرب أفريقيا في سلفيتهم إلى يومنا هذا ، كما تأثر المغاربة بالسلفيين المالكيين والشوافع والحنفية دون الحنابلة رحم الله الجميع .